في الحجاج المغالطي سبيلا إلى الهيمنة باللّغة(*)

أ. الصحبي هدوي(**)

I – مقدّمة :

عملنا لا يعدو أن يكون مجرّد مدخل إلى دراسة كيفيّة استخدام الأعمال اللغويّة في الحجاج المغالطي سبيلا للهيمنة باللّغة. وننوي أن ننضوي به من خلال البحث في العلاقة بين "الأعمال اللّغويّة" و"الحجاج" ضمن المنظور اللّغويّ، دونما إغفال كليّ لبقيّة زوايا النّظر، آخذين بما انبثق عن بعض التّصوّرات التّداوليّة اللّسانيّة، شأن تصوّر أوزفالد ديكرو (Oswald Ducrot) وكلود أنسكمبر (Jean-Claude Anscombre)، اللّذيْن يقولان «إنّنا نريد أن نصل إلى القول إنّ الإخباريات في الواقع تُعدّ من درجة ثانية بالمقارنة مع الأقوال الحجاجيّة، فالزّعم بوصف الحقيقة قد لا يكون إذن إلاّ قناعًا لزعم أكثر جوهريّة **بممارسة ضغط على آراء الآخرين**»، وهو ما يُسعفنا بالتّشريع للحديث عن علاقة مّا بين "اللّغة والهيمنة" في ضوء الدّراسات التّداوليّة الّتي ننوي أن نصدر عنها في بحثنا.

(*) المقال في الأصل نصّ مداخلة ألقيناها خلال فعاليات منتدى نور الدّين سريب للتّاريخ الاجتماعي والثّقافي في دورته الحادية عشرة المنعقدة بجرجيس، تونس أيّام 31/30/29 جويلية 2010 حول "اللّغة والهيمنة" ضمن المحور الأوّل: اللّغة؛ تشكّلها، تاريخها، مقارباتها النّظريّة، وخصائصها.

(**) أستاذ باحث – تونس.

ولذلك سنسعى خلال هذه الورقة إلى دراسة الأعمال اللّغويّة المساهمة في الحجاج، أو ما يمكن أن نسمّيه مبدئيًّا وبشيء من المجازفة "الأعمال اللّغويّة الحجاجيّة"، ولا نعني بذلك أنّ من الأعمال ما هو حجاجي أو صالح للحجاج ومنها ما هو غير ذلك، ولكنّنا نعني أيّ عمل لغوي ننجزه في وضعيّة حجاجيّة مخصوصة ولتحقيق غاية أو وظيفة حجاجيّة مضبوطة، على أن نخصّص القول أكثر في الأعمال اللّغويّة المستخدمة للمغالطة، فقد يعمد المحاجّ في بعض الأقوال الحجاجيّة إلى تكثيف الاستفهامات الإنكاريّة ذات البعد الإثباتي لتذكير المخاطَب بما يعلم عن الأطروحة والزّج به في الخطاب، ومن ثمّة دفعه إلى الاقتناع دفعًا، على أنّ الاقتناع هنا ليس تلقائيّا يحدث عن طواعيّة، كما يُفهم عنه في العادة، وإنّما هو نتاج عمليّة حجاجيّة إقناعيّة يسخّر لها المحاجّ كلّ طاقاته اللّغويّة وأساليبه المغالطيّة.

فقد يعمد المحاجّ إلى إظهار بناء منطقيّ لخطابه بتسخير أعمال الشّرط أو الحصر أو أيّ عمل لغويّ ينجز بأحد التّراكيب التّلازميّة، كالشّرط الممكن (إنْ فعلت... حدث.../ من يفعل...يفعل...) أو الشّرط الممتنع (لو فعلت... لَحَدَثَ...) سواء لبناء حجاج عقلاني صارم أو لمجرّد المخاتلة والمداهنة والمغالطة بجعل غير المنطقي منطقيًّا وبإخضاع ما لا يُعقَلُ لسلطان العقل استنادًا سافرًا إلى ما يفصله عن المخاطب في مستوى القدرة على تطويع اللّغة وتأويل المتواليات من أعمال القول الّتي تكوّن نسيج الخطاب الحجاجي المنجز، وهنا يكون الحجاج بالقوّة وتحدث المغالطات الحجاجيّة وتحصل الهيمنة على عقول الآخرين باللّغة لأنّ تلك الأعمال لا تعدو في النّهاية أن تكون أعمالا منجزة في اللّغة وبها.

ولتحقيق هذه المقاصد رأينا أن نستهلّ بتعرّف الحجاج لنقف في خطوة إجرائيّة لاحقة تمثّل جوهر الموضوع عند ضرْب من الحجاج هو الحجاج المغالطي، ونحاول الكشف في الحين عن إمكانات لتوظيف الأعمال اللّغويّة في بناء حجاج مغالطي تبدو من خلاله "الهيمنة باللّغة".

II – ماذا نعني بالحجاج ؟

1 – المعنى اللّغويّ :

جاء في لسان العرب لابن منظور: «حاججته أي غلبته بالحجج الّتي أدليت بها، ويقال حاجّه محاجّة وحجاجًا أي نازعه الحجّة. والتّحاجّ هو التّخاصم، والرّجل المحاجج هو الرّجل الجدل.

والاحتجاج، من احتجّ بالشّيء؛ أي اتّخذه حجّة. ويقال أنا حاججته فأنا محاجّه وحجيجه؛ أي مغالبه بإظهار الحجّة الّتي تعني "الدّليل والبرهان"». (اللّسان، مادّة حجج).

كما ورد في قاموس "روبير" (Robert) الفرنسي أنّ «لفظة "Argumentation" تشير إلى الدّفاع عن اعتراض أو أطروحة بواسطة حجج، أو عرض وجهة نظر معارضة مصحوبة بحجج»[1].

وبناءً على هذا التّعريف اللّغويّ يُلاحظ الباحث المغربي حبيب أعرب في مقال له بعنوان: "الحجاج والاستدلال الحجاجي"[2] أنّ هذه التّحديدات المعجميّة تكشف عمّا يحمله لفظ الحجاج والمحاجّة في مضمونه من دلالة على معاني "التّخاصم" و"التّنازع" و"الجدل" و"الغلبة" عمليّات مأخوذة هنا بمعانيها الفكريّة والتّواصليّة.

2 – المعنى الاصطلاحيّ :

يعرّف الحجاج اصطلاحًا تعريفات مختلفة تتعدّد بتعدّد المناويل والمرجعيّات الفكريّة، ومن بين هذه التّعريفات اعتباره "آلات الخطاب الّتي يعتمدها الفرد أو تستخدمها المجموعة لِحَمْل المخاطَب على تبنّي وجهة نظر مّا

(1) Le Grand Robert : Dictionnaire de la langue française, T 1, Paris 1989, p 535.

(2) أعرب (حبيب)، الحجاج والاستدلال الحجاجي، مجلّة عالم الفكر، المجلّد 30، يوليو– سبتمبر 2001، الكويت، ص 99.

والتّسليم بها ثمّ العمل على تحقيقها"[3]، ويبين هذا التّعريف الوظيفي عن خصائص الحجاج الأساسيّة التّالية :

- أنّه يستدعي حضور أطراف متعدّدة، هي: مُنشئ الحجاج أو المحاجّ ومخاطبَه وجمهور السّامعين أو الشّهود.
- أنّه ليس عمليّة ذهنيّة، وإنّما هو تمشّ يهدف فيه المخاطِب إلى التّأثير في المخاطَب بإقناعه أو حمله على التّسليم بقضيّة أو أطروحة معيّنة.
- أنّ صاحبه يستخدم مجموعة من الحجج والتّبريرات تعتمد الأدلّة العقليّة والمنطقيّة.

3 – الحجاج في النّظريّة الحجاجيّة اللّسانيّة :

يتعارض معنى الحجاج في نظريّة الحجاج في اللّغة مع معانيه في كثير من النّظريات والتّصورات والمناويل الحجاجيّة الكلاسيكيّة الّتي تعدّ الحجاج متفرّعا عن البلاغة الكلاسيكيّة مع أرسطو، أو البلاغة الحديثة مع أولبريخت تيتيكا، وميشال مبير.. وبرلمان الّذي يعرّفه بكونه "مجموع تقنيات الخطاب الّتي من شأنها أن تبعث على إذعان المتلقّين للقضايا الّتي نعرضها عليهم أو أن نزيد في درجات هذا الإذعان"[4]، كما يعتبر أنّ غاية الحجاج إنّما هي "التّأثير في الإنسان بأن يجد نفسه مدفوعًا إلى العمل أو مهيّأ لإنجاز عمل محتمل"[5]،

ويعرّفه اللّسانيّ الفرنسيّ أوزفيلد ديكرو الّذي قام بتطوير أفكار أوستين بالخصوص، واقترح في هذا الإطار إضافة عمليْن لغوييْن، هما: عمل الاقتضاء

(3) Perelman (ch) : Article Argumentation, in, Encyclopesia Universalis Corpus 2, Paris, 1990; p. 638.

أو ضمن محمد علي القارصي، 1997، من مظاهر الحجاج في "كليلة ودمنة"، حوليات الجامعة التونسيّة عدد 41، ص 136.

(4) Perlman (Ch) et Tyteca (Olbrechts) : Traité de l'argumentation, Presses universitaires de Lyon 1981, p 92 .

(5) السّابق، نفس الصّفحة.

(Pré-suppositon) وعمل الحجاج (L'argumentation)، بأنّه "عمل لغويّ يقصد إلى إحداث تغييرات ذات طبيعة قانونية تراعي مجموعة من الحقوق والواجبات. فعمل الحجاج حينئذ يفرض على المخاطَب نمطًا مضبوطًا من النّتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الّذي يمكن أن يسير فيه الحوار. والقيمة الحجاجيّة لقول مّا هي نوع من الإلزام ارتبط بالطريقة الّتي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تناميه واستمراره.

ويطلق ديكرو وأنسكمبر على ذاك الحجاج الخطابي اسم "الحجاج في اللّغة" أو "داخل اللّغة" بما أنّه يمثّل تلك القواعد الدّاخليّة الّتي يبنى بها الخطاب وتتحكّم في ترابطه وتسلسله[6].

3 – الحجاج الخاطئ (أو الزّائف) وأنواع المغالطات[7]:

إنّ أيّ بحث دقيق في المغالطات الحجاجيّة يمكن أن يكشف عن إمكانات للهيمنة باللّغة عبر هذه المغالطات على اختلاف طرق استعمالها وسبل تأديتها لمقاصد متكلّم يعدل بالخطاب الحجاجي عن نيّة حسنة لا بدّ أن يصدر عنها ليلبسه لبوسًا سيّئ النّوايا، وهذه المغالطات عديدةٌ أنواعها، ربّما يعسر حصرها في مثل هذا العمل، لعلّ أهمّ ما تناول منها الدّارسون على علمنا: التّناقض المنطقي، التّناقض الأخلاقي العملي، الحجاج وجه ذات، الحجاج وجه ذات الاستهجاني، الاحتجاج بالسّلطة، حجاج القوّة، المحاجّة الجماهيريّة، المحاجّة بالتّجهيل: (مغالطة معرفيّة ومغالطة جدليّة)، المصادرة على المطلوب، مغالطة المسائل المتعدّدة، التّركيب والقسمة أو التّأليف والإفراد... [8]، وبما أنّ المجال لا

(6) Ducrot (Oswald): Les échelles argumentatives. Editions de Minuit. Paris, 1989. p 18-19.

(7) العزاوي (أبو بكر)، الحجاج في اللّغة ينظر الموقع على الشابكة (الإنترنت).

(8) ينظر على سبيل المثال: النّويري، محمد، الأساليب المغالطيّة مدخلا في نقد الحجاج، ضمن أهمّ نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، كليّة الآداب منوبة، 1998، ص ص 403 – 447.

يسع لاستعراضها وإطناب الحديث فيها، فإنّنا سنقتصر على تقديم بعضها ممّا سنحتجّ به على أطروحة "الهيمنة باللّغة" في بعض وجوهها المتعلّقة بالحجاج.

4 - 1 – الحجاج بالسّلطة : هو ضرب من الحجاج يُبنى على قياس وهمي، وهي نموذج شائع في الثّقافة العربيّة، فهي بمثابة حجّة النقل الّتي تقابل حجّة العقل، ويمثّل الباحث الجزائري نعمان بوقرّة لهذا النّمط من المغالطة الحجاجيّة بالقول[9]:

- «إسرائيل دولة نوويّة وهي قوّة عسكريّة فـــهي إذن على حقّ».

مقدّمة أولى مقدّمة ثانية نتيـــجة

فهذا النّوع من المغالطة يشمل الحجاج بالسّلطة لأنّ القوّة العسكريّة هي الّتي منحت إسرائيل خلال المثال سلطة مّا، أكسبتها حقّا غير مشروع في الأصل. ونستنتج حينئذ أنّ إنجاز عمل الإثبات موجّه توجيها مغالطيّا: إثبات حقيقة (موضوع المقدمتين) لطمس حقيقة ثانية (نقيض النّتيجة) بإظهار علاقة منطقيّة مزيّفة بين المقدّمتين والنّتيجة.

وهنا يرى سلمون (Salmon) أنّ الاستناد إلى السّلطة يجعل الحجّة غير سليمة استنباطيّا، ذلك أنّ المقدّمات فيها يمكن أن تكون صحيحة والنّتيجة خاطئة[10] .

4 – 2 – حجاج القوّة : يخرجه البعض من مفهوم الحجاج باعتباره حوارا عقليّا، ويبرّر ذلك بأنّ هذا النّوع لا يعتمد على استنتاج عقلي يؤدّي إلى النّتيجة،

(9) بوقرّة (نعمان)، نظريّة الحجاج، مجلّة الموقف الأدبي، إصدار اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق، العدد 407، آذار 2005.

(10) ينظر: John Woods & Douglas Walton : Critique de L'argumentation, Kimé, 1992, p 40، وينظر كذلك ضمن النّويري، السّابق ص 424.

ولكن على إثبات النّتيجة بموجب أنّ فلانًا فرضها (القوّة) شأنه في ذلك شأن حجّة السّلطة حيث تُقبل النّتيجة بموجب أنّ فلانا قالها[11].

ويطغى على المقدّمات في حجاج القوّة الأسلوب الإنشائي من قبيل الأوامر والنّواهي:

- افعل كذا وإلاّ ضربتك.

- لا تفعل كذا وإلاّ ضربتك.

فيفعل المخاطَب أو يحجم عن الفعل خشية الضّرب لا بموجب اقتناع، ولا يعني المحاجّ حينئذ إن كان المخاطَب مقتنعًا بما فعل أو لا بقدر ما يعنيه تحقّق الفعل.

ولنا من الأمثلة الدّالة على هذه الخاصيّة الأسلوبيّة خطبة زيد بن المقنّع العذري الّذي كان يسعى إلى ضمان ولاية العهد ليزيد بن معاوية، فرغم أنّ الصّيغ الظّاهرة فيها هي صيغ الخبر فإنّه يمكن أن نردّها في يسر إلى الأسلوب الإنشائي، فقد خطب في حضرة معاوية قائلا :

"هذا أمير المؤمنين، (وأشار إلى معاوية)، فإن هلك فهذا، (وأشار إلى يزيد)، ومن أبى فهذا (وأشار إلى سيفه)"[12].

وهكذا نستنتج أنّ حجاج القوّة لا يتّجه نحو مواقف المخاطبين وقناعاتهم بقدر ما يسعى إلى تكييف أعمالهم وسلوكاتهم بحسب إرادة المتكلّم ووفق ميولاته ورغباته[13].

---

(11) يضيف الباحث نفسه نوعا آخر من الحجاج المغالطي هو "التّناقض الإثباتي" الّذي تنبّه إليه الآية التّاسعة عشرة من سورة مريم حيث يقول تعالى : ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا**﴾. إذ ذهب بعض المفسّرين إلى أنّها لم تنذر في الحال بل صبرت حتّى أتاها قومها فذكرت لهم كونها نذرت، فيكون هذا منها تناقضا، فقد تكلّمت من حيث نذرت عدم الكلام، بينما ذهب آخرون إلى إمساكها واكتفائها بالإيماء بالرّأس.

(12) الباهي (حسّان)، تهافت الاستدلال في الحجاج المغالط، ص 6.

(13) هذا المقصد يتعارض مع أبسط تعريفات الحجّة بما أنّها كما ورد عن النّويري "تخاطب المنظومة الفكريّة للمتقبّل قصد توجيهها توجيها ينجم عنه انتظام جديد للأفكار؛ انتظـام يذهـب = =

4 – 3 – المغالطة المنطقيّة : تتشكّل بقياسات منطقيّة مغالطة تقوم على مقدّمات وهميّة كاذبة، شبيهة بما يبنى على الحقيقة أو الشّهرة والشّيوع، ومن أمثلتها[14]:

- كلّ ميّت يجب دفنه، والحجر ميّت، لذا يجب دفنه.
- أن يشير أحدهم إلى صورة فرس على الحائط، ويقول: هذا فرس، وكلّ فرس صهّال، فهذا صهّال.
- أن تقول في رجل يتكلّم في العلم على غير هدى: هذا يتكلّم بألفاظ العِلْم، وكلّ من هو كذلك فهو عالِم، فهذا عالِم.

فهذه القياسات المنطقيّة تُوهم بأنّها قياسات حقيقة، بل هي مضللّة ومغالطة.

4 – 4 – المغالطة العمليّة (Tu quoque) كما سمّاها ريشر(N .Resher): تتجسّد في ذاك التّناقض البيّن بين أقوال المحاجّ وأفعاله، ونجد في النّص القرآني ما يشير إليها إشارة واضحة في الآية الرّابعة والأربعين من سورة البقرة. يقول تعالى : ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ**﴾. كما يمكن ترجمة هذه المغالطة بذاك القول المأثور : "ينهى عن خلق ويأتي مثله".

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها :

- أن يقول أب مدخّن لابنه: "لا تدخّن، يا بنيّ (فالتّدخين يضرّ بالصّحة)".
- أن يتظاهر عاقّ بنصح صديقه فيقول: "أطع والدتك (إنّ الجنّة تحت أقدام الأمّهات)".

= = ببعضها ويبوّئ غيرها محلّها فيدع ما كان يعتقده، بعضه أو كلّه. ويقتنع بما لم يكن مقتنعا في حركة ذاتيّة للفكر هي الأثر المباشر لعمليّة الحجاج". (النّويري، محمد، الأساليب المغالطيّة مدخلا في نقد الحجاج، أهمّ نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، كليّة الآداب منوبة، 1998، ص 427).

(14) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965، 508/3.

4 – 5 – الحجاج وجه ذات: ويتمثّل في مهاجمة الخصم الحجاجي والسّخرية منه والتّهكم عليه لتشويه صورته أمام المستمعين وجعلهم يستنتجون أنّ كلّ ما يقوله خطأ[15].

وتجلو المغالطات بإنجاز أعمال لغويّة عديدة كالتّهديد والوعيد والتّرهيب وغيرها من الأعمال الّتي تعتمد أساليبَ خطابيّة إقناعيّةً، وهو ضَرْب من الحجاج ينحو منحى استسلاميّا. ومن الأمثلة الشّهيرة على ذلك: خطبة الحجّاج بن يوسف في أهل العراق...

ونفهم من ذلك أنّ استعمال بعض الأعمال اللّغويّة يضمن للمحاجّ قدرًا من القوّة أو السّلطة ممّا يتيح له المغالطة، ويسعفه بتبرير موقفه تبريرًا مغالطيّا زائفا يفتقر إلى البعد الحقيقي للخطاب الحجاجي السّليم، فيستحيل بالتّالي حجاجًا زائفًا.

5 – اللّغة؛ من مجرّد وسيلة للتّواصل إلى أداة سلطويّة للإقناع بالقوّة :

من المعروف أنّ للّغة رسالتين، تهدف الأولى إلى أن تكون مجرّد معلومة خالصة، فينحصر دور المتكلّم المرسل في إيصال الرّسالة إلى المتلقّي ليفهمها. بينما تتجاوز الثّانية إلى إقناع المتلقّي بمضمونها، ولا تقف عند مرحلة فهمه إيّاها. وهنا يشير استيتية[16] إلى ما يمكن أن ينجرّ عن الاقتناع كأن «يعتقد المستقبل

(15) ينظر كورنيليا فون راد – صكوحي في مقدّمة كتابها «الحجاج في المقام المدرسي»، كليّة الآداب بمنّوبة، تونس 2003، حيث تقول الباحثة وهي تتحدّث عن الحجاج بالسّلطة والحجاج بالقوّة أنّه «كما يمكن أن نستعمل السّلطة أو الحجاج وجه الذّات بطريقة سليمة في ميدان العلم مثلا حيث نقبل قول الاختصاصيّ ولا نقبل قول غير الاختصاصيّ، يمكن أيضا استعمال هذا النّوع من الحجاج الّذي يربط بين صفات الشّخص وسلامة كلامه **بطريقة مغالطيّة**، إذ إنّ سلطة شخص ما لا تمنع أنّه يمكن أن يخطئ، كما أنّ شخصا تشوّهت صورته يمكن أن يقول الحقّ» (ص 27).

(16) نعني الباحث استيتيّة (سمير شريف) مدير مركز النّطق والسّمع – جامعة اليرموك – المملكة الأردنيّة الهاشميّة.

بصدق الرّسالة، لا بمجرّد صحّتها، وأن يجعل احتمال توجيهها لأفعاله أمرًا واردًا، إمّا بفعل الحدث، وإمّا بالكفّ عنه وتركه»[17]، ويعني ذلك أنّ الرّسالة ترد مضمّنة بأعمال لغويّة شأن الأوامر والنّواهي يتأوّلها المتلقّي بحسب معطيات مقاميّة محدّدة فتوجّهه إلى إيقاع الفعل إذا كان مأمورًا وتركه أو الكفّ عن إيقاعه إذا كان منهيّا، وقد تطرح مع هذا النّمط من الأعمال مسألة التّعسّف على المخاطبين فقد يعمل بعض النّاس على «بثّ الرّسالة بأيّ طريقة كانت لإقناع النّاس بها، وهم من أجل ذلك يسوّغون لأنفسهم كلّ وسائل التّرغيب والتّرهيب...»[18]،

وقد يحدث ألاّ يحرص المتكلّم المحاجّ على إقناع المخاطَب بأطروحته بقدر ما يحرص على إلزامه بمضمونها، «وهي طريقة استعلائيّة في بثّ الرّسالة وتوجيه الخطاب، ولعلّ أكثر ما تعتمد عليه هذه الطّريقة هو كون المخاطَب غير قادر على المواجهة، أو أنّه يرى نفسه غير قادر على ذلك أو أنّه لا يريد المواجهة أصلا، وفي مثل هذه الحال يستمرئ القويّ قوّته والضّعيف ضعفه، وتكون لغة هذا صورة لقوّته ولغة ذاك مرآة لضعفه»[19].

ومهما يكن، فأن يفرض المتكلّم سلطته على المخاطَب يصبح حينئذ أمرا بديهيّا لإنشاء الأوامر والنّواهي، على أن تكون هذه السلطة حقيقيّة وضعيّة ثابتة، إذ «يمكن أن تقول لي مثلا ونحن في جزيرة مقفرة «اِجْمَعْ حَطَبًا» فأجيبك: «أَنَا لاَ أَقْبَلُ مِنْكَ أَوَامِرَ» أو«لَيْسَ لَكَ مَا يُؤَهِّلُكَ إِلَى أَنْ تَأْمُرَنِي»، فأنا لا أقبل منك أوامر حين تحاول «فرض سلطتك» في جزيرة مقفرة، وهي سلطة يمكن لي أن أعترف

(17) استيتيّة (سمير شريف)، ثلاثيّة اللّسانيات التّواصليّة، عالم الفكر، العدد 3، المجلّد 34، الكويت، مارس 2006. ص 23.

(18) نفسه، ص 26.

(19) نفسه، ص 28.

بها كما يمكنني ألاّ أعترف بها. وهذا خلافًا للحالة الّتي تكون فيها قائد سفينة حيث تكون لك سلطة حقيقيّة»[20].

وهنا يثير أوستين مسألة هامّة تتّصل بوضعيّة التلفّظ عند إصدار الأوامر وتخصّ أساسًا علاقة المتكلّم بالمخاطَب بما هي علاقة توتّر، إذ تكتنف هذه العلاقة رابطة سلطويّة يحتكم إليها المتكلّم لدى توجّهه للمخاطَب آمرًا أو ناهيًا، وهذا ما يتجسّد في ضابط الاستعلاء خلال التّصوّر البلاغي لمثل هذه الأعمال، فهو شرط من شروط إنجاز الأوامر[21]. ولكنّ استغلال مثل هذه الوضعيات والضّوابط المقاميّة قد يكون مغاليًا في بعض الأقوال، حتّى إنّ الجاحظ يتحدّث عن «التّخلّص من الخصم بالحقّ والباطل...»[22]، رغم أنّه يعود في السّياق ذاته ليذكر تخليص الحقّ من الباطل والإقرار بالحقّ، ولذلك قد توسّم بسمات من قبيل السّلطة والقوّة والهيمنة، وربّما أمكننا حينها أن نتّخذها دلائل نستدلّ بها على ضرب من ضروب المغالطات الحجاجيّة متى استقرّ عندنا أنّ كلّ الأقوال متلبّسة بالحجاج، وأنّ الحجاج حينئذ سمة عامّة لكلّ استعمال للّغة. إذ نجد في الصّيغة الّتي يقدّمها ديكرو أنّ «كلّ قول حجاج»، فأن تتكلّم يعني أن تحاجج، ولا وجود لكلام دون شحنة حجاجيّة[23].

---

(20) ينظر :

AUSTIN, J.L, 1962,- How to do things with words, Cambridge. Mass. Harvard university. Press. p28// Trad. Française : quand dire c'est faire. Servil. Paris 1970.

ويمكن أن يراجع ضمن مقالنا الموسوم بـ«كيف ننجز بالأقوال أعمالا:الأوامر والنّواهي أعمالا لغويّة»، مجلّة رحاب المعرفة، السّنة 12، العدد 68، مارس – أفريل 2009، ص 52.

(21) ينظر فصل "الأوامر والنّواهي أعمال طلب تحقّق مطابقة العالم للقول: معيار سلطة المتكلّم وإرادته" من عملنا الموسوم بـ«الأوامر والنّواهي أعمالا لغويّة؛ مقاربة نحويّة تداوليّة للأمر والنّهي في اللّغة العربيّة»، مرقون بالمعهد العالي للغات بتونس، 2004، ص 102.

(22) البيان والتّبيين، ج 1، ص ص 212 – 213.

(23) **DUCROT,O,**1984, Le dire et le dit, les Editions de Minuit, Paris.p 108.

5 – العدول بالحوار العقلاني إلى الجدال فالمغالطة ضربا من الهيمنة باللّغة:

يمرّ الحوار الحجاجي عادة بمراحل تختلف تسمياتها، يمكن أن نلخّصها، بناءً على ما ذهب إليه الباحث المغربي حسّان الباهي، في أربع هي[24]:

- أوّلا : الفتح أو الاستهلال.
- ثانيا : المواجهة أو المقابلة.
- ثالثا : التّدليل أو المحاجّة.
- رابعا : الختم أو الإنهاء.

إلاّ أنّ هذه المراحل قد لا تُستوفى وقد لا يُلتزم بها، إذ قد يبدأ الحوار مشروعا يحترم كلّ طرف واجباته ويلتزم ما تُمليه عليه سنن التّخاطب والتّعامل القولي (L'interaction verbale)[25]، وقوانين المحادثة (Lois de conversation) ليكون التّفاهم ويتحقّق التّواصل وفق قواعده الّتي تتحكّم في نمط الاستدلال الّذي يقترحه سورل (Searle) (أي مراحل الاستدلال الذّهني)[26] حتّى يتيسّر للمخاطَب فهم قصد المتكلّم فيكون الإقناع الحجاجي رديفه يحصل باستغلال الأعمال اللّغوية في إنشاء المحادثة طبق نواميسها وسُبل المتكلّم في التّعبير عن ذاته والكشف عنها للآخرين بطرق تيسّر على المخاطَب فهم مقاصده، وهو ما يعمل على توضيحه غرايس (Grice)[27] من خلال تلك القواعد التّحاوريّة الّتي ضبطها مؤكّدا أنّ نجاح عمليّة التّواصل يتطلّب الالتزام بمبدإ التّعاون، وهو مبدأ تنبثق عنه حكم أربع، هي[28]:

---

(24) الباهي (حسّان)، تهافت الاستدلال في الحجاج لمغالط.

(25) لمزيد التّوسّع في المفهوم يمكن النّظر في :

Kerbrat-Orecchion,C, 1990, Les interactions Verbales, Armand Colin.

(26) Searle, 1979, 71-77.

(27) ينظر : Logique et conversation – communication N°30 ed. Seuil 1979 -1

(28) حكم المحادثة عند غرايس ضمن مقالنا الموسوم بـ "كيف ننجز بالأقوال أعمالا: الأوامر والنّواهي أعمالا لغويّة"، مجلّة رحاب المعرفة، السّنة 12، العدد 68، مارس – أفريل 2009، ص 48.

- **حكمة الكمّية** : اجعلوا خطابكم أكثر غنى بالأخبار، على ألا يتعدّى ذلك حدّه، ليصبح هدفًا في التّواصل.
- **حكمة النّوعية (أو الكيفية)** : لا تقلْ ما تعتقده خاطئًا، وتفتقر للبراهين الكافية عنه.
- **حكمة العلاقة (أو الإفادة)** : كن دقيقًا.
- **حكمة الصيغة** : كن واضحًا، دون اللّبس، وموجزًا ومنظّمًا.

هذه الحكم عادة ما يتغافل عنها المحاجّ عندما ينحو بخطابه نحو المغالطة، ويضمر قصد التّضليل والإكراه، ولّما يصدر خطابه عن نيّة سيّئة فيستهدف تغليط خصمه ويتجرّد من أخلاقيات الحوار الحجاجي السّليم. وبناءً على ذلك تنقلب مراحل الحوار الحقيقي إلى أضدادها كما يحدث في المثال التّالي الّذي أورده حسّان الباهي بخصوص واقعة بسيطة قد تحدث بين زوجيْن[29]:

- أوّلا : الفتح أو الاستهلال : نقاش هادئ.
- ثانيا : المواجهة أو المقابلة : تباين في وجهات النّظر.
- ثالثا : التّدليل أو المحاجّة : صدام ونزاع وعراك وضرب وتضليل أمام تدخّل الأسرة.
- رابعا : الختم أو الإنهاء : ينتهي إلى المحاكم بعد ادّعاء كلّ منهما أحقيته في الحضانة.

ونفهم من ذلك أنّ الحوار الحجاجي قد يبدأ مشروعًا يقف فيه كلا الطّرفيْن في حدود ما له وما عليه بقدر كبير من المسؤوليّة، لكن بمجرّد أن ينتهك أحدهما سنن الحوار العقلاني، جميعها أو بعضها أو إحداها، حين يستغلّ مثلا حدثا معيّنا، ينقلب ذاك الحوار العقلاني الهادئ إلى جدال، فمغالطة[30]. ومن ثمّ

(29) الباهي (حسّان)، السّابق، نفس الصّفحة.
(30) السّابق، نفس الصّفحة.

فإنّ أيّ تناظر عقلانيّ هادئ رزين يمكن أن ينقلب في أيّ لحظة وبطريقة أو بأخرى إلى مغالطة صارخة تستخدم فيها مختلف أساليب التّضليل، كأن يعمد المحاجّ إلى إلغام خطابه بالأعمال اللّغويّة غير المباشرة، فتحضر أساليب تقوم على القوّة والهيمنة والإكراه والوعيد، كأن يقول:

- افعل (وسترى)!

- ألا تسمع كلامي؟

فيبدو الملفوظ الأوّل في معناه الأوّلي مجرّد نصيحة بصيغة أمر، لكنّ قوّته المقصودة بالقول (force illocutoire) هي قوّة التّوعد أو الوعيد عملا لغويّا غير مباشر. بينما قد يفهم الملفوظ الثّاني فهما حرفيّا على أنّه مجرّد استفهام أو سؤال، بينما يقصد المحاجّ إلى إنجازه بقوّة الإنكار. بل قد يعمد إلى الجمع بين أعمال لغويّة مباشرة وأخرى غير مباشرة، كأن يقول :

- ما أروع أن تعبّر عن رأيك، (قاصدا إلى التّعجّب عملا أوليّا مباشرا).

ثمّ يقول لاحقا :

-لكنْ أن تعبّر عن رأيك لا يعني أن تقول كلّ شيء، (قاصدًا بالإثبات إلى التّحذير).

فيحصل بذلك إرباك المخاطب وتحدث ممارسة ضرب من التّعمية والمراوغة والالتفاف عليه.

وقد ينبثق عن ذلك ضرب آخر من المغالطات الحجاجيّة تسَوم بـ :

- **المغالطة بالتّجهيل**: وهو نوع من المغالطات الّتي قد يحتال فيها المحاجّ على خصمه بدعوى التّعمّق في صورة استعمال الأعمال غير المباشرة لإجهاد المخاطب في تتبّع المعاني الحافّة، فلا يُفهم من كلامه إلاّ القليل لكثرة الغموض الّذي يكتنفه وكثافته.

وإذا كان أوستين قد قسّم العمل اللّغوي إلى عمل قولي (Acte locutoire)، وعمل مقصود بالقول (Acte illocutoire)، وعمل تأثيري بالقول (Acte perlocutoire)، فإنّ ثالثها؛ أي التّأثيري بالقول بما هو الأثر غير المباشر الّذي نحقّقه بالقول، ويرتبط بردّ فعل المخاطب يجاوز القول و يخرج عنه. قد يحصل بعد قول المتكلّم وقد لا يحصل، في حين أنّ العمل القولي والعمل المقصود بالقول عملان حاصلان، عرفيان، اصطلاحيان على خلافه[31]، فإذا كان للعرف تحكّم في إلزام المتكلّم بإبلاغ القصد بالقول أو القوّة المقصودة بالقول (illocutoire force)، فليس له في إبلاغ القصد التأثيري تواضع فهو لا يُلزم المتكلّم بأن يُوصِل قصده التّأثيري إلى المخاطب.

فهبْ أنّك قلت لشخص: «آمرك بالمغادرة» أو قلت له : «أنهاك عنها» وفي نيّتك وقصدك إذلاله وتحقيره أمامك، فأنت لم تأمره أو تنهاه إلاّ بعقد النيّة والقصد على الأمر أو النّهي، فقصد الأمر أو النّهي حاصل بفعل أمرك أو نهيك، أمّا قصد الإذلال والتّحقير فليس بالحاصل حتما لأمور منها مثلا:

- أنّ سامعك قد يُظهر لك الاستهزاء حيث انتظرت منه التذلّل.

- قد لا يبدر منه أيّ ردّ فعل إذا لم يفهمك.

- قد لا يردّ الفعل لأنّه لم يدرك قصدك لبلادة ذهنه.

فليس من اللاّزم أو المؤكّد، حينئذ، أن يبلغ قصدك التّأثيري المخاطب، بل إنّك قد تقصد أثرا ما لقولك فلا يقع وقد تحدثه دونما قصد، وقد يحدث حيث قصدت غيره[32].

(31) الشريف (محمد صلاح الدّين)، تقديم عام للاتجاه البراغماتي، ضمن كتاب "أهم المدارس اللّسانيّة"، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس 1986، ص 106.

(32) نفسه، ص107.

الخاتمـــة :

لقد سخّرنا هذا العمل في كلّيته للكشف عن بعض مظاهر الهيمنة باللّغة؛ أي من خلال استعمالها استعمالا موجّها بسوء نيّة إلى مقاصد وأغراض ذاتيّة معياريّة مشبعة بتلك النّزعة الفردانيّة الّتي لا توافق المغزى الإنساني للّغة، باعتبارها آلة مطواع خدوم تؤمّن التّواصل بين الأفراد بذاك المعنى الشّمولي الواسع لمعنى التّواصل حين يستحضر مستعملها أنّه "كائن لغوي" حقيق به أن يسخّرها دون أن يناقض ذاته(33).

ولم نجد من حيث اختصاصنا اللّسانيّ التّداوليّ أفضل من الحجاج، وتخصيصًا "المغالطات الحجاجيّة"، لتوضيح سبل العدول بالاستعمالات اللّغويّة عن وظائفها الأصليّة، والإبانة عن شكل من أشكال التّسلّط والهيمنة أداته اللّغة بعد إذ هي أداة "إنشاء للكون" كما ينظّر لذلك الكثير ممّن يشتغلون على التّداوليّة(34).

وبناءً على ما تعرّفناه عن الحجاج في النّظريّة الحجاجيّة اللّسانيّة، أمكننا أن نبدي بقدر كيف يمكن أن توجّه الأعمال اللغّويّة توجيها مغالطيّا يعدل بها عن أيّ وظيفة حجاجيّة ممكنة إلى تشكيل حجاج زائف عادة ما يلغم بتلك الأعمال الإنشائيّة القابلة للتأويل بكثافة مثّلنا لها بـ"الأوامر والنّواهي" الّتي توحي عادة بقدر من التّسلط.

وبالتّوافق إلى ما استخلصنا ونحن نقارب المغالطات الحجاجيّة من خلال بعض ضروبها، وتأكيدا لخلاصة تلك النّتائج، تبيّنا أنّ كلّ محاولة للعدول بالحوار العقلانيّ إلى الجدال فالمغالطة يعدّ عندنا ضربا من الهيمنة باللّغة.

---

(33) ينظر شحاته (عبد المنعم)، التّحاور الكفء: محدّداته وتنميته، عالم الفكر، العدد 1، المجلّد 37 يوليو- سبتمبر 2008، ص 111.

(34) ينظر: الشّريف (محمّد صلاح الدّين)، الشّرط والإنشاء النّحوي للكون؛ بحث في الأسس المولّدة للأبنية والدّلالات، منشورات كليّة الآداب بمنّوبة، تونس 2002.

وفي المحصلة استنتجنا أنّ التّشريك الحجاجي سلوك عقلانيّ من شأنه أن يعطّل إمكان الهيمنة باللّغة في الوسط الاجتماعي العام، ويقي الكيان الاجتماعيّ من التّصدّع عندما ينشأ أفراده على تقاليد حجاجيّة بمنأى عن المغالطات، تجعلهم شركاء إيجابيين في التّأسيس لسلوك حجاجيّ عقلانيّ.